

دلالة المكان الأليف (البحر) في الخطاب الأدبي الجزائري - نماذج شعريّة مختارة -

The Significance of the Familiar Place (the Sea) in Algerian Literary Discourse: Selected Poetic Models

د. سُهَى حيمور* - Himour Souha
جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)
himour.souha@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/05/22

تاريخ الاستلام: 2026/02/01

ملخص:

تتعدد الأمكنة وتنوّع في الخطاب الأدبي الجزائري، ولا سيما الشعري منه، والذي يكثر فيه توظيف البعض منها بصفة خاصة، باعتبارها مكانا أليفاً كثيّر الوُزود، والبحر من الأمكنة التي كان لها نصيبٌ كبير من الحضور في الخطاب الشعري الجزائري، واهتمام الشعراء الجزائريين به لم يأت من فراغ، فالقيم الجماليّة والدلالات التي يحملها إطاره المكانيّ في المتخيل الأدبي الجزائري باعتباره مكانا لاحتواء البشر، وتسعى هذه الدّراسة إلى إبراز الدّلالات المختلفة التي يكتسبها البحر تبعاً لتنوّع السياقات التاريخيّة، والنفسية، والجماليّة للشّعراء، مع تبيان دوره في التعبير عن العلاقة الحميمة بين الإنسان والمكان، وأيضاً في تجسيد القلق والاغتراب أحياناً، دون أن يفقد ألفته.

الكلمات المفتاحية: الدّلالات، المكان، المكان الأليف، البحر، الخطاب.

Abstract:

Places are numerous and varied in Algerian literary discourse, particularly in poetry, where certain spaces are recurrently employed as familiar and intimate settings. Among these, the sea occupies a prominent position in Algerian poetic expression. Algerian poets' interest in the sea is not incidental; rather, it stems from the aesthetic values and symbolic connotations embedded in its spatial framework within the Algerian literary imagination, where it is perceived as a space that embraces human existence.

This study seeks to highlight the multiple meanings attributed to the sea in accordance with the diversity of poets' historical, psychological, and aesthetic contexts. It also aims to demonstrate the sea's role in articulating the intimate relationship between human beings and

place, as well as its function in embodying feelings of anxiety and alienation at times, without ever losing its sense of familiarity.

Keywords: Semantics, Place, Familiar Place, Sea, Discourse.

. مقدمة:

يعدّ المكان عنصراً فاعلاً في بناء القصيدة؛ وأحد المكونات الجوهرية في تشكيل الخطاب الأدبي، إذ يعتمد إلى إضفاء شعرية خاصة عليها. فالإطار المكاني يحدّد ملامح هذه القصائد بجمليتها، لما ينطوي عليه من طاقة دلالية، ورمزية تسهم في تشكيل الرؤية الفنية، وأيضاً توجيه أفق التلقّي، وهذا تماماً مانجده أثناء تصفّحنا لجلّ القصائد التي اتخذت من المكان مادة أدبية، لما له من أبعاد نفسية، واجتماعية، وعلاقته بالشاعر أيضاً، هذه الأبعاد التي دفعت كثيراً من الشعراء لتوظيفه في كتاباتهم، إذ يلجأ إليه الناس باختلاف طبقاتهم يبتونه همومهم، وأحزانهم، وأشجانهم، فيرون فيه مصدراً للراحة، والتجدد والبعث وغير ذلك.

و يحتلّ البحر مكانة مميزة في المخيال الأدبي الجزائري، لما يحمله من دلالات متعدّدة تتراوح بين الألفة والاحتواء، والاتّساع والحرية، والقلق والاعتراب، لذا قد كان له حظٌّ وافر في الدواوين الشعرية، إذ نُسجت قصائد بأكملها تعبّر وتصف مكاناً بعينه، ما جعل بعض الأمكنة مألوفة محبة يردّها الشعراء في قصائدهم كثيراً، هذا ما ألفيناه مع توظيف البحر الذي يعتبر مكاناً أليفاً في الشعر الجزائري، وشكّل في خضمّ ذلك مصدراً لإلهام الشعراء الجزائريين، ومتنفساً تعبيرياً استدعوا من خلاله تجاربهم الذاتية والجماعية، واستثمروا رمزيته في التعبير عن قضايا الوجود، والهوية، والذاكرة التاريخية. ما ولّد معانٍ متجددة، ودلالات مختلفة ومتنوعة لا يمكن معرفتها إلا من خلال السياق. يتأتّى ممّا سبق طرح الإشكالات التالية: كيف عبّر المتخيّل الشعري الجزائري على هذا المكان (البحر)؟ وماهي الدلالات التي اخترلها البحر وتضمنها في المدونة الشعرية الجزائرية، باعتباره مكاناً أليفاً؟ وما ذكر إنّما هو لمحة يسيرة، يتلوها تفصيل القول، واستيفاء المعنى في هذا المقال.

2. المكان في الشعر: قراءة في المفهوم والمصطلح:

يتجاوز حضور المكان في الشعر الجزائري الوظيفة الوصفية إلى أبعاد رمزية، وإيحائية تُثري النص وتكثّف دلالاته، وممّا لاشكّ فيه أنّ المكان من أبرز المكونات البنيوية، والدلالية في الخطاب الشعري، لما له من دور فاعل في تشكيل الرؤية الفنية وبناء المعنى الجمالي.

لذا ينبغي علينا، قبل الولوج لتفاصيل هذه الدراسة، رصد المعنى اللغوي والاصطلاحي للمكان حتى ترسم عبر دراستنا هذه الملامح الدلالية التي نقصدها من خلال هذا البحث، ومنه:

1.2 . المكان لغة:

تُجمع المعاجم اللغوية على تعريف أوحده للمكان فلا نكاد نجد اختلافا كبيرا بينها، ونذكر من ذلك ما أورده الفيروزآبادي حيث جاء عنده لفظ "مكان" تحت الجذر اللغوي (كَوَن) قال: "والمكان والمكانة واحد (...). والمكان الموضوع، والجمع: أمكنة، وأماكن"¹، وهو في قاموس المحيط بنفس المعنى؛ أي المكان هو الموضوع، وأورد ابن منظور لفظ (مكان) تحت الجذر اللغوي (كَوَن) قال: "فقال: «والمكان والمكانة واحد (...)» والمكان الموضوع، والجمع: أمكنة، وأماكن، (...) والمكانة المنزل، والمكانة الموضوع، (...) قال ابن بري: مَكِينٌ فَعِيلٌ، وَمَكَانٌ فَعَالٌ، وَمَكَانَةٌ فَعَالَةٌ، ليس شيء منها من الكون فهذا سهو، وأمكنة أفعله"². والراجع حسب ما ذكره علماء اللغة أن المكان مشتق من كَوَن على وزن مفعّل، كموضوع، ومنه فالمكان جمع أمكنة وأمكن، وجمع الجمع أماكن، وهو الموضوع والمنزلة حسب ما اتفقت عليه المعاجم.

2.2 المكان اصطلاحا:

يستعمل العرب عادة مصطلح المكان للدلالة على الحيز، وقد عرّف الجرجاني المكان بأنه: "هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم، وتنفذ فيه أبعاده، وقسم المكان إلى ثلاثة أقسام هي: المكان المبهم والمكان المعين والمكان المحصور"³. ويحمل هذا التعريف مقارنة فلسفية/ هندسية للمكان، فالجرجاني ينظر إليه بوصفه فراغاً خاوٍ، يُقسّم إلى مراتب بحسب درجة تعيينه وانغلاقه، من المبهم إلى المعين فالمحصور.

أمّا حديثاً فإنّ تعريف اعتدال عثمان، يتجاوز هذا المنظور الهندسيّ الضيّق، ليفتح للمكان أفقاً أوسع، إذ ترى أنّه: لا يقتصر على كونه أبعاداً هندسية وحجوماً، ولكنه فضلاً عن ذلك هو نظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني، أو الجهد الذهني المجرد⁴. ومنه فإنّ دلالة المكان ليست مجرد وعاءٍ مُحايد للأشياء، إنّما راجعة لمدى وعي الإنسان به، واستثماره في بناء المعنى.

3.2 . المكان في الشعر:

يختلف معنى المكان بين ما هو عليه في الواقع والمعنى الأدبي له؛ حيث نجد عبد المالك مرتاض يميّز بين المكان الحقيقي والأدبي فيقول: "المكان الأدبي عالم بلا حدود وبحر دون ساحل، وليل دون صباح، ونهار دون مساء، إنه امتداد مستمر مفتوح على جميع الاتجاهات، وفي كل الأفق"⁵. كما يميز بين المكان والحيز حين يقول: "ولا يكاد النقاد الغربيون يصطنعون مصطلح المكان إلا عرضاً، ولدلالات خاصة، وعبر حيز ضيق من نشاطهم: أما المصطلح الشائع والذي يعنونون به كتبهم ومقالاتهم فإنما هو الحيز المقابل الأجنبي بالمقابل الأجنبي الذي ذكرناه، وترجمة (Espace, space) بالفضاء في حال، والمكان في حال أخرى مثل استعمال المصطلح الشائع في النقد العربي المعاصر "جمالية المكان" ترجمة غير سليمة ولا دقيقة التمثيل للمعنى الأصلي الأجنبي في رأينا

على الأقل⁶، وهذا التعريف ينمّ عن وعي عبد المالك مرتاض بالفارق الجوهرى بين المكان الواقعي، والمكان الأدبي، ويكشف عن موقفه النقدي، إذ إنّ تعريفه لا يقتصر على توصيف المكان السردى، إنّما يدعو إلى مزيد من الدقة المصطلحية، والمعرفة العميقة بالسياقات المعرفية التي نشأت فيها هذه المفاهيم. وهذا ما يجعل تصوّره للمكان إضافة نوعية في الدرس السردى العربى، لقدرته الجمع بين العمق الفلسفى، والحسّ النقدي تجاه قضايا الترجمة والتلقي.

4.2. البعد النفسى للمكان (البحر):

ليس المكان عند ذوى الأبواب جدراناً تُحدّ، ولا رقعةً من الأرض تُقاس، إنّما هو وعاءٌ للنفس، وموضع انكشافٍ وتجلٍّ لما استقرّ في الضمائر من أنسٍ أو وحشة، وسكينةٍ أو اضطراب. فكم من دارٍ ضاقت بسكّانها على سعتها، وكم من فلاةٍ انفسحت للروح حتى صارت وطناً ومقرّاً.

ومن هذا المنطلق يمكن القول أنّ المكان ليس مجرد أداة يستعين بها الشاعر لرسم الحدود الجغرافية لقصيدته، وإن بدا في ظاهره جماداً لا يحسّ ولا ينطق، فإنّ له في القلوب أثراً أبلغ من كثيرٍ من الأحياء؛ إذ تُلقي النفس عليه من صفاتها، وتكسوه من أحوالها، فيغدو فرحاً لفرحها، وكئيماً لكآبتها، وهو يمثل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب.

بيد أن المكان -في الآونة الأخيرة- لم يعد يُعتبر مجرد خلفية تقع فيها الأحداث الدرامية، ولكن أصبح ينظر إليه على أنه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفني، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكلان بعدا جماليا من أبعاد النص⁷، فقد احتل هذا الأخير مكانة متميزة في الدرس النقدي لما له من تجليات شعرية وجمالية في السرد خاصة؛ إذ يراد بتوظيفه تقريب المسافة بين المشاعر التي تحتلج الشاعر وذهن القارئ.

والشاعر أثناء توظيفه المكان باعتباره رمزا أدبيا فإنّ "الأفكار والصّور والأحداث تُفرض نفسها عليه، ويصوّغها باستعمال لغة فنيّة تتجاوز المعتاد، وتسبح بأخيلة لا تتوقّف، وتتخذ من الرّمز تعبيرا مناسبا في اكتشاف الأسرار وتقديم جرعات نفسيّة لاتعرف لليأس مكانا عند الشاعر وبذلك تقدّم للمجتمع كبديل مناسب"⁸. وعلى هذا، فإنّ البعد النفسى للمكان لا يتشكّل من صورته وحدها؛ إنّما يتولّد من تفاعل الذات معه ، فالمكان واحد، والنفوس شتى، وما بين صدرٍ منشرج وصدرٍ ضيق تتغيّر الأمكنة وإن ثبتت في مواضعها.

3 دلالات توظيف البحر في الشعر الجزائري:

1.3 دلالات توظيف البحر في قصيدة " ليلة مع البحر " للشاعر أحمد سحنون:

البحر رمز مميّز أسهب الشاعر الجزائري في رسمه وتوظيفه في كل قصائده، يواسي الحزون، ويسلّي المهموم، وله من الدلالات ما يتجسّد حسب الحالة النفسيّة للشاعر، ومن بين القصائد التي أفردا أصحابها للبحر ومخاطبته، نجد قصيدة **ليلة مع البحر** للشاعر **أحمد سحنون**، والتي راح يناجي فيها البحر في ليلة من الليالي، يتّخذة خليلا يتبادل معه الهموم، والمميّز في القصيدة أنّ محورها ليس كما هو معتاد أن يشكو الشاعر للبحر، بل العكس، إذ كان أحمد سحنون في كلّ بيت من الأبيات يُحدث البحر ويسأله عن أخباره، يتدبّر القصيدة بقوله:⁹

مَاذَا بِنَفْسِكَ قَدْ أَلَمَ يَا أَيُّهَا الْبَحْرُ الْخَضِرُ
نَامَ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ وَبَقِيَتْ وَخْدَكَ لَمْ تَنَمَ

على خلفيّة الأبيات السّالفة الذكر يتبيّن أنّ المعني هنا بالشّكوى وبثّ الأحزان هو البحر لا الشّاعر، فهو يُسأله عن خطبه الجلل الذي يمنعه من التّوّم رغم خلود كلّ الخلائق للنّوم، وكأنّه هنا يعتبر البحر (هذا المكان الأليف) شخصا تربطه به علاقة ودودة لحدّ تبادل الهموم والأحزان، والسّؤال عن الآخر، فهو يقول في نفس السياق¹⁰:

يَا بَحْرُ مَا هَذِي الشَّكَاةُ أَلَسْتَ تُوصَفُ بِالْعِظَمِ

يمثّل البحر كونا عظيما بذاته منذ القدم، فمن العجيب أن يلمح البشر في يوم ما وهنه وحزنه، والشّاعر في هذا البيت كأنه تماهى حتّى صار والبحر شيئا واحدا يُحسّ به وبكلّ ما لم يستطع البوح به، ومما لاشكّ فيه أنّ المكان وفي كلّ مرة يوظّف فيه يدل على الانتماء والسّكون؛ ومخاطبة الشّاعر لهذا المكان الأليف لم تأت من عدم بل لما يقاسيه من آلام صعبت عليه التّوّم هو أيضا حتّى ألفتناه يُخاطب البحر في ساعة متأخرة من الليل، ما يجعل القارئ يطرح سؤالاً: هل البحر إلّا حجة من الشّاعر يُغطي بها عن حالته النفسيّة؟ أم أنه حقّا يهتمّ لأمر هذا المكان الذي هو في الأساس يعبر عن حالته هذه مذ خلق الله الأرض؟.

ويستمر أحمد سحنون في مساءلة هذا المكان، يقول¹¹:

وَأَرَى الْعُبُوسَ عَلَى مُحِيٍّ نَاكَ الْجَلِيلِ قَدْ ارْتَسَمَ
وَأَرَى أَنْيَنَكَ صَاعِدًا فِي الْجَوِّ يَدْوِي فِي الْأَكَمِ

إنّ البحر هنا كمكان هو أداة شعرية فذة تعبّر عن واقع الشاعر، وذاته، وصراعه في مواجهة ما يحيطه من آلام، ولاشكّ أنه في هذا الموضوع يُحدث البحر ويُسائله عن آلامه حتى يتوصّل المبدع إلى إقناع القارئ أنّ المعنى حقا في هذه الأبيات هو البحر، بينما من يغوص في كنهها يُدرك أنّ هذا المكان ما هو إلّا مطيّة اتخذها الشاعر ليُغطّي عن همومه، فيجد في المكان الذي يقصده مساحات أرحب تتسع لأفكاره ومكبواته، حتّى يجد أفكاره في ذلك الموضوع تتدفّق دونما انقطاع. رغم أنّه يقول¹²:

إِنِّي حَيْالِكَ وَاقِفٌ فَكَرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَمْ

وَسَمِئْتُ مِنْ أَرْقِي فَجِئْتُ إِلَيْكَ أَطْرَحُ السَّأَمَ

فهذا لا ينفي أنّ تفكير الشاعر في الأساس كان منطلقه آلامه وهمومه وكيف أنّ البحر يتّسع صدره لكلّ هذه الشكوى التي تأتيه من الناس كافة؛ وإنّ هذا يستلّنا إلى الاعتقاد بأنّ البحر صديق حميم، وفي الأخير نجدّه ينسب الفضل للبحر هذا الصديق القديم المنصت الجيد لهموم الآخرين والحافظ الأمين لأسرارهم يقول¹³:

فَلَأَنْتَ تَارِيخُ تَضَمٍّ مِنْ مَا جَرَى مِنْهُ الْقَدَمَ

دُمُ مُسْتَرَادًّا لِلْحَزَبِ مِنْ وَ سَلْوَةٍ لِدَوِي الْأَمِّ

وَسَمَاءٌ وَحْيٍ لِلْأَدَبِ سَبِّ وَ مُجْتَلَى حَسَنًا أَمِّ

كما قلنا سابقا أنّ الشاعر يختم قصيدته بالاعتراف بفضل البحر الذي كان ومازال؛ وسيظلّ مكانا يلجأ إليه الناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم، مايدلّ أنّ هذا المكان يحمل دلالات الصديق الوفي، والصّدر الرّحب، والحافظ الأمين، ما يُخرجه عن كونه مكانا عاديا إلى مكان ذي إجماعات أدبية.

2.3 دلالات توظيف البحر في قصيدة "من وحي البحر" للشاعر عبد الكريم العقون:

يُضفي توظيف المكان على القصيدة جمالية مُغلّفة بالرمز، والبحر من الأماكن التي تتردّد في النصوص الشعرية الجزائرية بكثافة، حتّى أنّها في كثير من الأحيان تفرض نفسها على السياق فرضا، والمحاور والمسائل للنص الذي بين أيدينا يجد أنّ الشاعر يخاطب هذا المكان كأنه صديق حميم يعرفه منذ الطفولة؛ إذ لا يتوانى عن إبداء ضعفه أمامه وهو يتبدّى قصيدته المعنونة بـ من وحي القلم، يقول¹⁴:

هَآ أَنَا الْيَوْمَ قَدْ وَقَفْتُ أَنَا جِيدَ لَكَ - أَيَا بَحْرُ - فَاسْتَمِعْ لِنَشِيدِي

والمناجاة لا تكون إلا لمن نتوسّم فيهم الثقة والخير وكتمان السرّ والنّصح، وهذه صفات لا نجدها في كلّ البشر، بينما شاعرنا قد وجدها في هذا المكان الأليف، وباعتبار البحر فضاءً رحباً ذو دلالة عميقة وموحية، لها ما لها من إسقاطات نفسية ولواعج باطنية؛ يقول¹⁵ في سياق آخر:

هَلْ أَرَى فِيكَ بَلَسَمًا جُرُوحِي؟ أَوْ أَلَا قِي تَحُرُّرًا مِنْ قُبُودِي

إنّ توظيف البحر في هذا المقطع حملت رؤيا الأمل، والخلاص من القيود، والجروح التي لاقاها الشاعر، ومن هذا نلاحظ أنّ الشاعر الجزائري سعى من خلال لجوئه إلى توظيف البحر لتعميق رؤيته، وتجربته الشعريّة، وذلك لما وجده في لفظة البحر من طاقات دلالية متعددة قابلة للتأويل، والتحليل على أوجه مختلفة.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ فضاء هذا المكان الأليف ارتبط ارتباطاً متيناً بالشاعر حتّى بات في منأى عن رفاقه فقط؛ لأنه اختار صحبة البحر إذ يقول¹⁶:

سَكَنْتُ نَفْسِي الْحَزِينَةَ وَارْتَا حَتَّ إِلَى حُسْنِكَ الْبَدِيعِ الْفَرِيدِ

أَثَرْتُ قُرْبَكَ الْحَبِيبَ عَلَى كُ ل رَفَاقِي قَدِيمُهُمْ وَالْجَدِيدِ

إنّ الجوهر النفسي للبحر يكمن في اعتباره مكاناً يكثر توظيفه لما له من ألفة في قلوب الشعراء، وهاهي ذي الأبيات التي بين أيدينا تُثبت ذلك، فقد بلغ من المكانة عندهم حدّ التفريط في الخلّان والأصحاب وتفضيل مجالسته، وبثّه الهموم ومبادلته أطراف الحديث التي تكون من طرف واحد فعادة ما يتخيّل الشاعر الردود.

وللشاعر وقفات كثيرة عند هذا البحر، فصوّره في حالاته كلّها، وهو في غضبه يُلاطم الموج أو وهو ساكن ممندّ شاسع هادئ، كما وبين الفينة والأخرى لا يتردد عن ذكر أنه المكان المحبّب إليه، والذي تستأنس به نفسه، فيقول في هذا السياق:

جِئْتُ أَقْضِي النَّهَارَ فِيكَ لَعَلِّي وَاجِدٌ فِيكَ مَفْزَعًا لِلشَّرِيدِ

شَادِيًا لِلْعَبَابِ، لِلْمَنْظَرِ الْفَا تِنِ، لِلْمَوْجِ لِلصَّدَى الْمَمْدُودِ

ويختتم القصيدة بتمجيد هذا المكان ومدحه والدعاء له بالسلامة على المدى، يقول:

أَنْتَ رَمَزُ الْخُلُودِ وَالْحُسْنِ فَاسْلَمْ رَمَزَ حُسْنٍ عَلَى الْمَدَى وَخُلُودِ

وهذه الأبيات تدلّ على تأثر الشاعر الكبير بالبحر وتعلّقه به، ما يعني أنّه بات صديقا صدوقا لا مكانا أليفا وحسب، لا يكتفي ببثّه شكواه وما أهّمّه فقط، بل يرغب أن يكون رفيقا له طول الدّهر، فالبحر يُثري خيال الشاعر ويلهمه بالمعاني، والشّاعر هنا وجد فيه إضافة إلى ما ذكرنا العزاء والصدر الرّحب.

3.3 . البحر ودلالاته في قصيدة "قال لي البحر" للشّاعر الجزائري محمّد جربوعة:

ورد البحر في ديوان الشّاعر محمّد جربوعة في قصيدة أفردّها له، ووسمها بـ "قال لي البحر"، تعدّدت فيها الإشارات والإيحاءات، واختلفت حسب ما يرومه الشّاعر من البحر، بيد أنّ الموضوع واحد، وهو بثّ الشّكوى وألم الخذلان له، والشّعور بأنّه يشاطره ذاك الألم، يقول:

يقول لي البحر: من نّحوهم أفلوا أنا وأنت سواء، أيّها الرّجلُ

أنا وأنت بلا حظّ، ومن رحلوا عنا رجوناهم.. لكنّهم رحلوا¹⁷

يجسّد الشّاعر البحر وكأنّه إنسان من لحم ودم يخاطبه، يخبره أنّه تعرّض للخذلان، وأنّ أحبّته رحلوا بعيدا، وأنّه يشابه هذا الرّجل/ الشّاعر في فقدّه، فتعرّضهما للتّرك من الأحبة يعني أنّهما بلا حظّ، ولا يكتفي بهذا الحدّ بل إنّ البحر يطلب من الشّاعر أن يساعده في معرفة السّبيل إلى إطفاء الحرائق المشتعلة فيه رغم أنّه ماء، في انزياح لغويّ بديع يسبغ الشّاعر على البحر صفات البشر، فهو يقول:

فكيف تُطفئ فيك النّار؟ من جهتي ماء أنا.. غير أنّي الآن أشتعل

غروب شمّسك -رغم الفرق- يشبهه غروب شمسي.. كلانا ماله أمل¹⁸

في معنى يحمل من التّناقض ما يشدّ الأذهان، يجمع المتكلّم/ البحر بين كلّ من النّار والماء، ما لم يُجمع سوى في الأساطير القديمة، وهي مفارقة بلاغية رائعة، قائمة على التّضاد، وفي البيت الثّاني يقول عن التّشابه بين مصائرها، وهو الأفلول بعد الشّروق، ما يعني النّهاية الحتميّة لكلّ شيء، وهذا البيت يحمل معان الاستسلام والحزن التي يشعر بها البحر، وفي نفس السّياق يستمرّ الشّاعر على لسان البحر يبيّن أحزانه:

موجي حزين.. مناراتي مشوّشة لا حلّ عندي.. فقل لي أنت ما العمل؟

قلوبهم بعدنا غمي، وكافرة مهما بدت في رحاب الحب تبتهل¹⁹

يرمز الموج للعاطفة والمشاعر التي تحتاج قلب المتكلّم، فهو يشعر بالحزن والرّكود، فقلوه "موجي حزين" يوحي بأنّ نفسه مثقلة بالحزن، وأن لا حلّ لديه، فهو يشعر بالتّيه والضّياع، مناراته مشوّشة لأنّ نير الطّريق أمامه، يرتجى

من مخاطبه حلًا، فهو يعاني بعد اكتشافه حقيقة القلوب المحيطة به، ثمّ تراه يجد من الحلول اقتراحات يطرحها عليه، لعلّها تكون مجدية، يقول:

ما رأيك الآن أن ننسى ونقتلهم فينا.. ونغسل قلوبنا، ونحتفل؟

أو نترك الحبّ.. رغم الحبّ، نتركه وللصّلاة وصوم البيض ننتقل²⁰

نلغي هذه الاقتراحات القاسية التي تنبع من رغبة في التحرّر، ولو أنّها مجازيّة إلا أنّ معناها عميق بما يكفي لفهم الأثر السيء الذي تركه الآخرون، لذا فقد جاءت بنبرة انتقاميّة، والاقتراح الثّاني أشدّ وطأة من الأوّل، إذ يدعو البحر فيه الشّاعر إلى ترك الحبّ واعتزاله، وهجر الأحبة تمامًا كما فعلوا، يقول:

حيّرني يا صديقي.. من سيفهمني سواك، حين يخون الشّعر والجمال؟

لم السّكوت.. أجبن.. هل نسامحهم؟ وهل يسامح أو ينسى الأذى الجمل؟²¹

لقد أضحى البحر عند الشّاعر الجزائري صديقًا حميمًا، يبادلّه كلّ ما يحتلج صدره من مشاعر وأفكار، لذا فإنّ توظيفه في شتىّ المواضيع التي يتطرّق إليها الشّعر أمر لا بدّ منه، فهو دليل على الثّبات والقوّة، الشّوق والحنين، الجمال والبهاء، الهيجان والاضطراب، الهجرة والشّتات، المنفى والمصير المجهول، وغيره من الدّلالات الخفيّة التي يضمّها البحر، وبذلك ينزاح البحر من كونه مكانًا أليفًا إلى رمز متعدّد الدّلالات، ومنه فالشّعر "لا يكرّر المكان ليقدم صورة فوتوغرافيّة مُطابقة للأصل، إنّما يعتمد على إلغائه، وإعادة تشكيله، وخلق انفعال الذات المبدعة"²²، وهنا مكمن الإبداع الذي يرومه الشّعراء.

4.3. البحر ورمزيّاته في قصيدة "سجّلات البحر الميت" لعزالدين مناصرة:

يحدث أن لا يجد البشر رفيقًا يبتّونه شكواهم، ولا أنيسًا في وحدتهم يخفّف عنهم غربة الأيام، لذا نابت الطّبيعة في ظلّ هذه الوحدة عن حاجة البشر للبشر، وقد جرى الشّاعر عزالدين مناصرة في قصيدته الموسومة "سجّلات البحر الميت" على سنن عرفته العربيّة قديمًا، وهو بثّ الشكوى والإفضاء بالهم إلى غير الإنسان، ومن هذا المنطلق، تأتي هذه الأبيات محمّلة بدلالة الوحدة والخذلان، ومشفوعة بصور رمزيّة تُكسب التجربة بعدًا وجدائيًا عميقًا، يستدعي الوقوف عند معانيها، وألفاظها للكشف عمّا تنطوي عليه من إشارات نفسية وجمالية.

يقول الشّاعر:

"لم أجد من أشكو له:

لا تُديروا ظهوركم له، لا تودّعوه،

فهو يعرفكم، واحدًا، واحدًا،

يحفر أسماء زوّاره، في سجلّات الأمواج."23

يفصح الشاعر في هذه الأبيات عن وحدة مُطبّقة، وعزلةٍ بلغت به حدًّا ألا يجد من يفضي إليه بشكواه، فلا بشر يسمع، ولا صديق يُصغي. ثم يلتفت إلى مخاطبة الجميع، ناصحًا و محذّرًا ألا يولّوا ظهورهم لذلك الكيان المشار إليه بـ«له»، وهو يقصد البحر، وألا يودّعوه، فهو لا يستحقّ أن يُنسى ولا يُهمَل، بل يعرفهم واحدًا واحدًا، ولا تظنّوا أنّ الوداع يقطع الصلة أو يمحو الأثر. فهو يحتفظ بأثارهم كما تحتفظ الأمواج بأسماء من مرّوا عليها، ففي هذا الالتفات انتقال من شكوى ذاتيّة إلى حكميّة مستخلصة من التجربة. والأبيات سابقة الذكر من الشعر الحرّ الذي لا يتقيّد بوزن ولا قافية، اختارها الشّاعر لأنّه في موقف لا يرغب فيه بالالتزام بأيّ قيد كان.

يوصل الشّاعر في قصيدته الحديث عن البحر، يقول:

"كان البحرُ، مُطمئنًا، يُصغي لأغنيّتي،

يجلسُ بهدوء،

مثل أفعى لدنة، يتفجّر بركان سمّها.

.....

إن أنا تجاهلتك أيّها البحر،

فليذوّبني، حنين الحمام."24

يقوم الشّاعر بوصف البحر يوم كان يبتّه شكواه، إذ تبدّى له ككائن حيّ، هادئ القسمات، طلق المحيّا، يُصغي إلى شكواه إصغاء الصّديق المهتمّ بخطبٍ أَلَمّ بخليّله، أو صدرٌ واسع يتّسع للروح ولا يضيق بثقله. ففي هذا الإصغاء سكونٌ يُغري بالثقة، وطمأنينة توهم بالأمان، حتى ليبدو البحر جالسًا في هدوئه، لا حركة فيه ولا اضطراب.

لكنّ الشّاعر يُقرّر بأنّ هذا الهدوء إنّما يُخفي في جوفه ما تخفيه الأفعى من سمّ تُخرجه وقت حاجتها إليه، كذلك البحر إذا آن أوانه اندفع انفجار البركان. وفي هذه الصورة جمع بين النقيضين: السكون والفتك، اللين والهلاك، بما يوحي بأنّ البحر، مُرعبٌ مُرهّب، وإن بدا مأمون الجانب، فهو في أعماقه قوة غامضة لا تُؤمن عواقبها، تحفظ في أعماقها ما يفوق ظاهرها.

هذا التناقض لم يخلق بينه وبين البحر حاجزا، ولا خوفا، إذ نلغي الشّاعر ينتقل بعد ذلك إلى خطابٍ مباشر، يفيض فيه بالاعتراف والرغبة، فيقول: إن أنا أعرضت عنك أيها البحر، أو تجاهلت حضورك في كياني، فليسلط عليّ حنين الحمام حتى يذيني. والحمام هنا رمز للأنس، والعودة، والحنين للشّيء الأوّل، وكأنّ الشاعر يرى في هذا الحنين عذاباً ناعماً، لا يقلّ قسوة عن سمّ الأفعى، بل يذيب الروح إذابةً بطيئة، ويُفنيها شوقاً لا يُحتمل. ومن هذا فهو لا يرى أنّ البحر مجرّد مكان للأنس والاستمتاع فقط، بل هو أعمق من ذلك، هو علاقة وجوديّة معقّدة.

4. خاتمة:

وخلاصة القول، أنّ المكان في الشّعر الجزائري لم يكن مجرّد إطارٍ جامدٍ للأحداث أو خلفيّة صامتة تتحرك فوقها الدّات الشاعرة، بل نستنتج إنّ كثيرا من الشّعراء الجزائريين قد أقبلوا على توظيف البحر في كتاباتهم حتّى أصبح هذا المكان إثر ذلك مفهوماً واسعاً يعكس حالات الخوف والغموض والانكسار والاغتراب وغيرها من الدلالات.

من خلال رصدنا أيضا لهذه المفردة في التّصوص التي قمنا بتحليلها يتبيّن لنا أنّ الشاعر الجزائري وظّفها في كثير من المواضع بمعناها الحقيقي، إلا أن لها من التّخريجات ما يفتح للقارئ آفاقا شاسعة ورحبة تدعوه للغوص في انزياحاتها عن معناها المعجمي، فهذه المفردة مُستوحاة من البيئة البحريّة والحقل الدّلالي البحري من أوسع وأخصب الحقول وأغناها مفردات.

وأیضا نجد أنّ للبحر أبعاداً جماليّة ورمزيّة تتمتّع بحالات الشّاعر الذي يوظّفها حسب حاجته التّفسية، فنجدّه يوظّفها مرّة تعبيرا منه عن الشّوق والحنين، ومرّة عن الجمال والوحدة، وأحيانا أخرى يوظّفها في مقام التّعبير عن الاضطراب والهيجان والتّمرد. لكنّ الرّاسخ أنّ البحر كان دائما صديقا للإنسان.

وعليه، يثبت هذا البحث أنّ دراسة المكان في الشّعر، ولا سيّما من زاويته التّفسية، تفتح آفاقاً واسعة لفهم العلاقة الجدليّة بين الإنسان وفضائه، وتكشف عن عمق التّجربة الشّعريّة الجزائريّة وقدرتها على تحويل المكان إلى تجربة وجوديّة نابضة بالدّلالة والجمال، وهو ما يدعو إلى مزيد من البحث والتّوسّع في هذا الحقل النقدي، لما يحمله من إمكانيات قرائيّة خصبة ومتجدّدة.

5. الهوامش:

- 1 - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، د. ط، دار الحديث، القاهرة، 1429هـ/2008م، ص1550.
- 2 - ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، مادة (مكن)، ج 13-14، مج 14، ط4، بيروت، 2005، ص 113.
- 3 - علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ-1983م، (ص227).
- 4 - بسام علي أبو بشير، جماليات المكان في رواية "باب الساحة" لسحر خليفة، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين، ص 273.
- 5 - عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سبتمبر 1988، ص 121.
- 6 - نفسه، ص 122..
- 7 - أحمد طاهر حسنين وآخرون: جمالية المكان، عيون المقالات، باندونغ، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1988، ص03.
- 8 - ينظر: بشير هامل، برهمي نجلاء، رمزية المكان وجماليته - نماذج من الشعر الجزائري المعاصر -، مجلة رفوف - جامعة أحمد دراية - أدرار، الجزائر، المجلد التاسع / العدد الأول 2021، ص228.
- 9 - صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص105.
- 10 - المرجع نفسه، ص106.
- 11 - المرجع نفسه، ص 106.
- 12 - صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 106.
- 13 - المرجع نفسه، ص 106، 107.
- 14 - صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص107.
- 15 - المرجع نفسه، ص 107.
- 16 - المرجع نفسه، ص 107.
- 17 - محمد جربوعة، ديوان: ماذا تكتب؟ أرسم ذي قار، منشورات جربوعة، سطيف، الجزائر، فيفري 2022، ص 73.
- 18 - نفسه، ص 74.
- 19 - نفسه: ص 75.
- 20 - محمد جربوعة، الديوان، ص76.
- 21 - محمد جربوعة، الديوان، ص 78.
- 22 - يُنظر: بشير هامل، نجلاء برهمي، رمزية المكان وجماليته - نماذج من الشعر الجزائري المعاصر -، ص 225.
- 23 - عز الدين مناصرة: مذكرات البحر الميت، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان/الأردن، ط2، 2005، ص99.
- 24 - عز الدين مناصرة، مرجع سابق، ص 102.

6. قائمة المراجع:

- أحمد طاهر حسنين وآخرون، جمالية المكان، عيون المقالات، بانداونغ، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1988.
- بسام علي أبو بشير، جماليات المكان في رواية "باب الساحة" لسحر خليفة، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين.
- بشير هامل، برهمي نجلاء، رمزية المكان وجماليته - نماذج من الشعر الجزائري المعاصر -، مجلة رفوف - جامعة أحمد دراية - أدرار، الجزائر، المجلد التاسع / العدد الأول 2021.
- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سبتمبر 1988.
- عز الدين مناصرة: مذكرات البحر الميت، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان/ الأردن، ط2، 2005.
- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ - 1983م.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، د.ط، دار الحديث، القاهرة، 1429هـ/2008م.
- محمد جربوعة، ديوان: ماذا تكتب؟ أرسم ذي قار، منشورات جربوعة، سطيف، الجزائر، فيفري 2022.